ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

الفكر الإصلاحي لدى الخليفة الموحدي إدريس المأمون و أثره على بلاد المغرب الإسلامي.

The Reformist Thought of the Almohad Caliph Idris al-Ma'mun and Its Impact on the Islamic Maghreb

د. زهيرة لكحل
جامعة وهران 1
zahiralakhal91@gmail.com

تاريخ استقبال المقال: 2024/01/23 تاريخ القبول: 2024/05/08 تاريخ النشر: 2024/06/01

ملخص:
اشتهر الخليفة الموحدي إدريس المأمون بفكره الإصلاحي خلال مرحلة ضعف الدولة الموحدية. سعى إلى إعادة الاستقرار من خلال التخلي عن العقيدة التومرتية واعتناق المذهب المالكي، مما ساعد في التقارب مع العلماء والفقهاء. كما عقد تحالفات سياسية مع قوى خارجية لضمان الاستقرار، رغم الجدل الذي أثارته. تركت إصلاحاته أثرًا بارزًا على بلاد المغرب، حيث مهدت لعودة الفكر الإسلامي التقليدي وأسهمت في إحياء الحياة الدينية، رغم أنها لم تنجح في إنقاذ الدولة الموحدية من الانهيار.
الكلمات المفتاحية: الفكر الإصلاحي، الخليفة الموحدي، إدريس المأمون، المغرب الإسلامي.

Abstract:
Almohad Caliph Idris al-Ma'mun was known for his reformist vision during a time of decline in the Almohad state. He abandoned the original Almohad doctrine and embraced the Maliki school, which helped reconcile with religious scholars. He also formed political alliances with external powers to maintain internal stability, a move that sparked controversy. His reforms had a lasting impact on the Maghreb, facilitating a return to traditional Islamic thought and reviving religious life, even though they could not prevent the fall of the Almohad dynasty.
Keywords: Reformist Thought, Almohad Caliph, Idris al-Ma'mun, Islamic Maghreb.

المقدمة:

لقد أثبت النظرية الخلدونية أن: "الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك، أصلها: إما نبوة أو دعوة حق"، على هذا الأساس عرفت بلاد المغارب كمجال جغرافي وسياسي خلال فترة حكم الخلافة الموحدية تجربة وحدوية مثلت النموذج الأمثل والوحيد لمعنى "الوحدة المغاربية"؛ التي دامت أزيد من قرن وعشرين سنة من الزمن (541-668هـ/1146-1269م) نجم على أساس دعوة دينية هدفت لإصلاح بلاد المغارب مستندا فيه المهدي بن تومرت على عصبية قوية؛ أثبتت مدى التفاعل والتكامل الموجود ما بين "الدعوة" و"العصبية" فيما يخص نشأة

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

وتطور الدولة المغربية في الفترة الوسيطة، إذ تعتبر وبحق أول دولة مستقلة تماما عن الخلافة السنية بالمشرق، وذلك بتكوين وإقامة خلافة إسلامية مغربية تعبر عن الرغبة الراسخة للمغاربة في الاستقلال والتميز عن المشرق.

إن التحصيل الذي اكتسبه المهدي بن تومرت شكل القاعدة الأساسية والمنطلق الرئيسي لتحقيق طموحه السياسي، فكانت أولى خطواته تحطيم السنية المعرفية لخصمه بالقضاء على سلطة الفقهاء، حيث استثمر المعرفة والتحصيل الواسع والظروف السيئة في بلاد المغرب بكل دياره وحواضره؛ كل هذا كَّون له القناعة الكافية لأجل"الثورة" على الحكام المرابطين وفقهائهم وأئمتهم

لم يعد المهدي بن تومرت من بلاد المشرق كثائر سياسي، ولكنه عاد ملتزما بأفكار إصلاحية للأعراف والعقيدة الإسلامية، مقتنعا أن من واجبه الوصول لتحقيق هذا الإصلاح، وأنه الشخص الملائم للقيام بذلك، ستدشن هذه الدعوة الجديدة بداية مرحلة منظومة سياسية جديدة. حظيت بالانتشار الواسع لكن سرعان ما بدأت بوادر الضعف والانحلال والتراجع حيث؛ أدت إلى عدة تداعيات على مستوى المجال المغاربي وبداية تغير الخريطة الجيوسياسية بالمنطقة بدأت بحدث عسكري وختمت بمجموعة من الإصلاحات والتدابير الجديدة على عهد الخليفة إدريس المأمون (626-630هـ/ 1228-1232م) سارع هذين العاملين في الانهيار الكلي للخلافة الموحدية وتلاشي شبه كلي للدعوة التومرتية [**المهدوية**]

حيث ستشهد الدعوة المذهبية التي قامت على أساسها الخلافة تغييرا وإصلاحا جديدا يسقط الأسس الأولى التي أقيمت على أساسها الخلافة الموحدية والمتمثلة في العصمة، والمهدوية؛ حيث رفض الخليفة إدريس المأمون العمل بمقتضياتها: إن على المستوى التعبدي العقدي أو على المستوى السياسي أو على المستوى الاجتماعي ؛ فكان أن جسد ذلك وبرهن عليه بإصداره تعليمات جديدة أدت لظهور نتائج خطيرة على الصعيد السلطوي للخلافة الموحدية، تمثلت في دخول منطقة بلاد المغارب عهدا سياسيا جديدا، إثر انهيار الخلافة الموحدية من جهة، وتلاشي شبه كلي للعقيدة التومرتية "المهدوية" من جهة آخرى.

وعليه نطرح التالي: ماهي أهم الإصلاحات التي قام بها الخليفة الموحدي إدريس المأمون؟ ما الأسباب التي أدت به لتغيير أسس الدعوة المذهبية التومرتية ؟ ماهي أهم انعكاساتها على المجال المغاربي؟

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

أولا: تمهيد حول نشأة الخلافة الموحدية: لقد نشأت حركة الموحدية في جنوب المغرب الأقصى سنة (515هـ/1121م)[1]، على يد الزعيم الروحي المهدي بن تومرت[2]، المنتمي إلى قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة[3]؛ تلقى المعارف بالعدوة الأندلسية بعد أن انتقل إليها في سنة 500هـ/1106م وقيل سنة (501هـ/1107م) [4]، حيث أخذ العلم في مدينة قرطبة ثم في مدينة ألمرية؛ ومنها رحل إلى المشرق، ونزل بالإسكندرية وأخذ عن عالمها أبي بكر الطرطوشي[5]، ثم رحل

[1]- محمد ولد داده- مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع "دراسة في التاريخ الساسي"-دار الكتاب اللبناني-بيروت- دار الكتاب المصري- القاهرة- ط1-1977-ص 127.

[2]- **المهدي بن تومرت:** ترجم له ابن العماد الحنبلي فقال عنه: " كان رجلاً ورعاً، ساكناً ناسكاً في الجملة، زاهداً متقشفاً شجاعاً جلداً عاقلاً ، عميق الفكر بعيد الغور، فصيحاً مهيباً، لذته في الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ، والجهاد، ولكن جره إقدامه وجرأته على حب الرئاسة ...، وهو هرغي بربري وهو إمام معصوم..." شذرات الذهب في أخبار من ذهب- حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط-أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه-عبد القادر الأرناؤوط- دار ابن كثير- دمشق، بيروت-ط1-1986-مج6-ص117/ ينظر أيضا: النويري-الغرب الإسلامي في العصر الوسيط(افريقية والمغرب والأندلس،صيقلية وأقريطش)-تحقيق-مصطفى أبو ضيف أحمد-دار النشر المغربية-1985. ص395

[3] - **مصمودة:** قبيلة بربرية من البرانس- ابن خلدون-العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر-اعتنى به وراجعه- درويش الجويدي- المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- ط2013-مج2-ص1899/القلقشندي-نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب- تحقيق إبراهيم الأبياري- دار الكتاب االلبناني- بيروت- ط2-1980م-ص422.

[4]- البيدق- أخبار المهدي بن تومرت- تحقيق وتعليق-عبد الحميد حاجيات- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر-ط2-1986-ص29.

[5]- **الطرطوشي:** يكنى أبا بكر، هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي- نشأ في الأندلس بمدينة طرطوشة، ثم انتقل للمشرق، أخذ عنه الناس هناك العلم وقيل أنه كان متقدماً في الفقه مذهباً وخلقاً - ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق- مأمون بن محي الدين الجنان- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 1996-صص 371-372.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

إلى بغداد حيث أقام فيها لمدة، وهناك قال ابن القطان أنه التقى بالإمام أبي حامد الغزالي[6]، ليعود منها إلى بلاد المغرب، داعيا إلى الأمر بالمعروف وناهيا عن المنكر[7].

ذكر البيدق تاريخ عودته كان سنة (510هـ/1116م)، مر خلالها بمدينة طرابلس والمهدية وتونس، إذ كان يقيم بكل مدينة مرَّ بها [8]، ثم نزل مدينة بجاية، حيث جلس هناك لتدريس العلم والوعظ، ثم خرج منها واستقر بضيعة ملالة[9]، إذ يصرح ابن خلدون إلى التقاء المهدي بن تومرت بخليفته عبد المؤمن بن علي، إثر خروجه من بجاية بضيعة تبعد عنها بفرسخ واحد[10]، الذي كان قاصدا المشرق لطلب العلم؛ إلا أن المهدي بن تومرت استطاع أن يقنعه بأن العلم الذي يريده في المشرق يمكنه أن يتحصل عليه هنا في المغرب، ليخرج المهدي بن تومرت ومعه عبد المؤمن بن علي عائدا إلى المغرب الأقصى لينزل بعدها بمدينة مراكش[11]، التي كانت حاضرة المرابطين وقتئذ؛ لقد رأى فيها المناكر والبدع هذا ما جعله أكثر إصراراً على التغيير والإصلاح، حيث بدأ إلقاء الدروس موعظا، يأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر[12]، بعدها صار المهدي بن تومرت إلى تينملل المكان الذي ستنطلق منه الدعوة الموحدية[13]، إذ أعلن عداءه فيها للمرابطين، وحث الناس على محاربتهم وشرع في تنظيم أتباعه وأعوانه، واجتمعوا إليه

[6] - ابن قطان- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان- درسه وقدم له وحققه: محمد علي مكي- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1-1990م- ص 73./ينظر أيضا: النويري-المصدر السابق-ص396.

[7] - عبد المجيد النجار- المهدي بن تومرت "حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب- دار الغرب الإسلامي-بيروت-ط1-1983-ص 84.

[8] - البيدق- المصدر السابق- ص29.

[9] - عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق- ص 137.

[10] - ابن خلدون- المصدر السابق- مج2- ص1910.

[11] - **مراكش**: هي إحدى المدن التي أسسها يوسف بن تاشفين سنة (459هـ/1067م)، وهي تقع على بعد ثلاثة أميال من وادي تنسيفت، وتعد من المدن الطيبة التربة الكثيرة الزرع- مجهول- الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق- سعيد زعلول عبد الحميد -دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد-د.ت-صص208-209.

[12] - عبد المجيد النجار - المرجع السابق- ص 98.

[13] - عبد الواحد المراكشي- المصدر السابق-ص 140.

ردمد ISSN 0000–0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 –0000

وأعلن "مهديته"، فبايعه أصحابه،أصحابه متتالين طبقة بعد طبقة، ولما كملت البيعة لقبوه"بالمهدي" و"الإمام المعصوم"[14].

لم يعد المهدي بن تومرت من بلاد المشرق كثائر سياسي، ولكنه عاد ملتزما بأفكار إصلاحية للأعراف والعقيدة الإسلامية، مقتنعا أن من واجبه الوصول لتحقيق هذا الإصلاح، وأنه الشخص الملائم للقيام بذلك[15]، ستدشن هذه الدعوة الجديدة مرحلة صراع بين الموحدين والمرابطين، حيث تعد موقعة البحيرة[16] سنة (524هـ/1130م)من أهم الأحداث العسكرية، التي نشبت بين الجيش الموحدي بقيادة البشير الونشريسي والجيش المرابطي بقيادة علي بن تاشفين، المنتهية بقتل قائد الموحدين وهزيمة جيوشهم[17]، لم يلبث المهدي بن تومرت طويلا بعد هذه الهزيمة حتى توفي في نفس السنة[18]، ولم يعلن عن وفاته إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وكان ذلك سنة 527هـ/1132م ليعين مكانه عبد المؤمن بن علي، فيكون أول خلفاء الدولة الموحدية متبعا نظام توريت الحكم من بعده[19]، إن المطلع على تاريخ الدولة الموحدية سيدرك -كما يرى لي تورنو- أنها حركة تلقت حافزها من التطور الروحي لشخص بمفرده، ومن إرادته التي لا تنثني لإنجاز الرسالة[20]، لقد استطاع المهدي بن تومرت بفضل خلفائه من بعده أن يحققوا وحدة سياسية لم يسبق لمنطقة الضفة الجنوبية أن عرفتها إذا ما استثنينا مرحلتي الفتح الإسلامي بميزة عالية والوجود العبيدي بخاصية أو ميزة أدنى منها، بل

[14] - عبد الله عنان- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس -مكتبة الخانجي- القاهرة-ط2-1990-ج3- صص173-174.

[15] - روجر لي تورنو- حركة الموحدين في المغرب في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر- تعريب: أمين الطيبي- ط- ح 1998- الدار البيضاء- ص 16.

[16] - **البحيرة:** تعرف أيضا ببحيرة الرقاق البسيط،كان قرب باب الدباغين وباب أيلان من مراكش، الذي جرت فيه الوقعة الكبيرة عام 524هـ/1130م- ابن الأحمر- بيوتات فاس الكبرى- دار المنصور للطباعة والوراقة – الرباط-1972 ،ينظر هامش -ص 32./النويري-المصدر السابق-صص403-404.

[17] -ابن سماك العاملي- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية-تحقيق: عبد القادر-دار الكتب العلمية- بيروت- ط1-2010م-ص 186.

[18] - ابن القطان- المصدر نفسه- ص 167.

[19] - حسين مؤنس-الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين"-مكتبة الخانجي- القاهرة-ط1-1980م-ص68.

[20] - روجر لي تورنو- المرجع السابق- ص17.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

إنهم تمكن من تعدى المنطقة بضم جزء من الضفة المقابلة وامتلاكهم العدوة الأندلسية؛ فكانت الدولة الموحدية أعظم دولة عرفتها المنطقة المغاربية بفعل امتداد سلطتها؛ أي "من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، مع تبعية العدوة الأندلسية لملكهم[21].

هكذا إذن ظهرت دعوة بن تومرت في بدايتها كما سبق الذكر، كحركة إصلاحية متلائمة مع الواقع الذي كانت تعيشه المنطقة من تشتت وضياع، في الوقت التي كانت الدولة المرابطية في مرحلة عمرها الأخير الذي عرف عند المؤرخ عبدالرحمان ابن خلدون بطور"الهرم والاضمحلال"، حيث بلغ فيهم الترف مبلغه وغايته بما تفننوه من النعيم ورغد العيش، وتسلط نسائهم على زمام الأمور كلها، كما أصبح للفقهاء المكانة العالية في الدولة، رغم عيبهم المتمثل في تزمتهم وولوجهم أمور السياسة دون أن يكونوا أحق بها وأهلا لها؛ فأفسدوا أكثر مما أصلحوا ولم ينكروا المنكرات التي كانت تحدث في أواخر عهد دولتهم[22].

ففي هذا الإطار نلاحظ بأن النظرية الخلدونية المرتكزة على مبدأ "القوة والغلبة، الذي يتطلب عصبية قوية تعلو على كل العصبيات لتأسيس الملك والسلطة؛ فإنها اتهمت بالنقص حيث نجد التاريخ حافلاً بأخبار الدول التي قامت وتأسست دون أن ينتمي مؤسسوها إلى عصبيات قوية، وعليه لا بد من وجود عامل آخر يرفع شأن القبيلة، ويمكنها من تعويض ملك بال وإنشاء آخر مكانه، هذا العامل هو عامل الدين أو الدعوة الدينية[23]، حيث يؤكد ابن خلدون ذلك في قوله: "الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك، أصلها: إما نبوة أو دعوة حق" [24].
بمعنى أن نجاح المهدي بن تومرت في تأسيس ملك الموحدين نجم على أساس دعوة دينية هدفت لإصلاح بلاد المغارب مستندا في أمره على عصبية قوية؛ وهذا ما يثبت مدى التفاعل والتكامل الموجود ما بين "الدعوة" و"العصبية" فيما يخص في نشأة وتطور الدولة المغربية في الفترة الوسيطة، إذ تعتبر وبحق كما عبر عنها أحد الباحثين أول دولة مستقلة تماما عن

[21] - حسين مؤنس-المرجع نفسه- ص 56.

[22]- منير شواكري-أسس قيام الدولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون-الدولة الموحدية-نموذجا(510-558هـ/1116-1163م) رسالة ماجستار-جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان-2013-2014- ص 133.

[23] - منير شواكري- المرجع نفسه- ص138.

[24] - ابن خلدون- المصدر السابق- مج1- ص89.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

الخلافة السنية بالمشرق، وذلك بتكوين وإقامة خلافة إسلامية مغربية تعبر عن الرغبة الراسخة للمغاربة في الاستقلال والتميز عن المشرق[25].

ثانيا: إصلاحات الخليفة إدريس المأمون: تُؤرخ هذه البداية بتولي الخليفة إدريس المأمون (626-630هـ/ 1228-1232م)[26] الذي بدأ حكمه بسلوك وموقف معاكس تماما لأسلافه من الحكام بعد أن أدرك الواقع المغاربي وأخطاء أسلافه فكان أن أمر بالقضاء على نزعة من سبقه من الخلفاء الموحدين خصوصا فيما تعلق بتعاليم العقيدة "المهدوية"؛ مع رفض العمل بمقتضياتها: إن على المستوى التعبدي العقدي أو على المستوى السياسي أو على المستوى الاجتماعي أو على المستوى الجغرافي[27]، فكان أن جسد ذلك وبرهن عليه بإصداره تعليمات قضت بحذف اسم المهدي بن تومرت من الخطبة وكذا العملة النقدية ومن الوثائق الرسمية، كما أن في عهده لم يصبح يُعترف فيه لا بالمصامدة ولا بأولويتهم على الصعيد السياسي وكذا الاجتماعي والخلاصة أن عهده مثل نهاية الاستناد على قبيلة المصامدة فيما يخص تسيير شؤون الخلافة على جميع الأصعدة الأمر الذي سيؤدي عملياً إلى إلغاء الخلافة [28].

إننا **نستخلص** مما سبق ذكره ظهور نتائج خطيرة جراء هذه التطورات على الصعيد السلطوي للخلافة الموحدية، تمثلت في مظاهر منها: الخروج عن طاعة الخليفة إدريس المأمون، وتقلص نفوذ السلطة المركزية التي كانت تعتمد أساسا على عنصر"المصامدة" باعتبارهم عصب الحكم وقاعدته الرئيسة، وبداية دخول منطقة بلاد المغارب عهدا جديدا وفعلا جاء الرد سريعا، بحيث لم تلبث الخلافة في أواخر عهدها أن فوجئت من طرف أبي زكريا الحفصي بتونس بخلع الطاعة واستبداده بالأمر، معتبرا نفسه وصياً على حماية عقيدة ومبادئ الموحدين، لقد دَّل هذا الأمر على بداية انهيار الخلافة الموحدية من جهة، وتلاشي شبه كلي للعقيدة التومرتية "المهدوية" من جهة آخرى، وبداية عودة الانتصار للمذهب المالكي من جديد على أيدي الدول التي ستقوم إثر السقوط النهائي للخلافة.

---

[25] - عبد اللطيف كنوش-السلطة والمؤسسات السياسية في مغرب الأمس واليوم-مكتبة بروفانس- الدار البيضاء-ط1988م- ص59.

[26] - صالح عبد الحليم الإيلاني-مفاخر البربر- تحقيق عبد القادر بوباية- مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث-طبعة خاصة- 2013م-262-263.

[27] - محمد القبلي- المجتمع والحكم والدين- ص36./طالع أيضا عبد الله العروي-مجمل تاريخ المغرب-المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء-المغرب-الطبعة الثالثة-2012م.ص337.

[28] - محمد القبلي- المرجع السابق- ص36.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

ثالثا: انعكاسات إصلاحات الخليفة إدريس المأمون على بلاد المغرب سياسيا: ظهور الحركات الانفصالية و اقتسام التركة الموحدية: تقلص نفوذ السلطة المركزية: إن مفهوم الدولة كما أقره المؤرخ عند ابن خلدون هو ذاك "الامتداد المكاني والزماني لحكم عصبية ما"[29]، بمعنى أن توسع حصة الدولة من الممالك والأوطان التابعة لها وطول أمدها متوقف على مدى قوة عصبيتها، وقوة التلاحم والانسجام بين أفرادها[30] ؛ فابن خلدون يربط نظريته بالعصبية ارتباطا عضويا، لذلك كان معنى الدولة يختلف باختلاف الزاوية التي ينظر منها إلى العصبية الحاكمة ورجالاتها، والعلاقات السائدة بينهم من جهة، وبين العصبيات الخاضعة لهم من جهة ثانية، ولعل أكثر الأخطاء التي وقع فيها الباحثون في تأويلاتهم وشروحهم لآراءه في الدولة راجعة إلى هذه النقطة بالذات؛ فنموذج"السلطة" التي حدثنا عنها ابن خلدون والتي ربطها بالدعوة والعصبية اعتبر أن غيابهما لا يُمَكنُ من تأسيس الملك[31]؛ فإن لم تتوفر عصبية قوية تميزها وتعلو بها عن باقي العصبيات فليس لها أي أهمية؛ كم شهد التاريخ من قبائل عريقة وكبيرة لكن قصرت بها عصبيتها عن إحداث الملك، وعليه فالكلام عن القبيلة دون عصبية ليس له معنى في المفهوم الخلدوني للعمران البشري[32]، إن هذه المسلمة أثبتت أن الملك القوي استلزم توفر شرطين أساسين، وهو ما غابا إثر زوال الملك الموحدي وبداية تقاسم الإرث بين القبائل التي كانت منضوية تحت سلطتها وخاضعة لها؛ فهل يمكن تأسيس ملك جديد في ظل غياب العصبية القوية والدعوة الدينية ؟

إن هذا التساؤل أول إشكالية من بين الإشكاليات التي سنحاول مقاربتها والإجابة عليها مع تطور الأحداث التي أفرزت ذلك التغير الجيو-سياسي للمنطقة المغاربية، إثر انفصال القبائل التي كانت خاضعة لسلطة الخلافة الموحدية، والتي رغبت في إرث تركتها؛ الأمر الذي انتهى باقتسام القبائل للملك الذي أقامه المهدي بن تومرت؛ هذا الملك الذي كان له وقع كبير على الساحة المغاربية، لما سببه وولده من تناحر وتنافس بين القبائل، وعلى رأسها قبيلة زناتة[33]

---

[29] - محمد عابد الجابري- فكر ابن خلدون- " **العصبية والدولة** "معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي- مركز الدراسات الوحدة العربية- ط1-بيروت- ص 211.

[30] - المرجع نفسه- ص 212.

[31] - ابن خلدون- المصدر السابق- مج1- ص 87.

[32] - منير شواكري- المرجع السابق - ص 61.

[33] - **زناتة:** من أهم القبائل البربرية، التي استوطنت وتركزت بالمغرب الأوسط وقتها واعتبرت المنطقة موطن للقبيلة الزناتية ، قسم المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون في كتابه القبيلة إلى طبقتين: الطبقة الأولى قبيلة بني

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

البربرية، التي رأت نفسها وريثاً شرعياً للملك الموحدين، فلم تعد للمنطقة وحدة سياسية إذا ما عدنا للتفسير الخلدوني، فالملك يحدث إذا وجدت"عصبية قوية" وهو ما افتقدته؛ فقبيلة زناتة التي ادعت الشرعية كانت منقسمة على نفسها، ولم يكن بين أفرادها ذلك التلاحم والانسجام المتحول إلى كتلة واحدة يحركها الولاء بهدف تحقيق وحدة سياسية جديدة بداية من القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي، والذي بفعله يحدث الملك هذا من جهة، فضلا عن افتقادها لعامل أخر كان سبب في إفشال المشروع الوحدوي والمتمثل في غياب "الدعوة الدينية" التي كان لحضورها المستمر دور في التغيير السياسي في تاريخ المنطقة المغاربية من جهة آخرى.

إنَّ القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، هو بداية تحول سياسي لم تعد فيه سلطة مركزية واحدة قادرة على إخضاع القبائل المتعددة المتفرقة: فكان الوضع يقتضي اقتسام كل قبيلة لنفسها جزءا من المنطقة لإقامة ملك فيها، إنه فعلا تحول جيوسياسي عرفه المجال المغاربي عهدها نتج عنه قيام ثلاث دول أو سلط توزعت على جغرافيته كالآتي: سلطة بالمغرب الأوسط التي تمثلها قبيلة بني عبد الواد أو ما يعرف بالدولة الزيانية لاحقا وسلطة بالمغرب الأدنى بإفريقية ممثلة من قبل بني حفص وسلطة بالمغرب الأقصى مثلتها قبيلة بني مرين.

سلطة المغرب الأوسط: (بنو عبد الواد): تنتمي قبلية بني عبد الواد إلى قبائل زناتة[34]، التي كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط، بشروع الموحدين في فتح هذه البلاد كان بنو عبد الواد العون القوي لهم والمخلصين في خدمتهم، لأجل هذا نالوا مقابل ذلك إقطاعات شملت منطقة وهران وما يليها غربا حتى تلمسان[35]، لقد استغلت قبيلة بني عبد الواد ضعف الدولة

يفرن أكبر قبائها وأشدهم شوكة ، ولقد كان منهم بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط ورد في مج2 ص 2068. ومن نفس الطبقة: مغراوة يذكر أنهم أوسع بطونهم ويحدد لنا مجالاتهم بأرض المغرب الأوسط (من شلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة) ورد ذكرها ص 2077. ثم من بعدها يذكر الطبقة الثانية: تمثلها بنو واسين (إخوة مغراوة وبني يفرن)، التي ستعرف بطونها ب(بني مرين- بني عبد الواد- بني توجين)-مج2-ص 2100.

[34] - ابن خلدون- المصدر السابق- مج2-ص 2109.

[35] - ابن الأحمر- تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان- تحقيق هاني سلامة- مكتبة الثقافة الدينية- ط-1- 2001م- ص 10./جورج مارسيه- بلاد المغرب وعلاقاته بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى- ترجمة محمود عبد الصمد هيكل- مراجعة مصطفى أبو ضيف- منشأة المعارف- الإسكندرية- دط- دت- ص 317.

ردمد 0000–0000 ISSN الإيداع القانوني: 0000– 0000 Depot Légal

الموحدية لتسيطر على مدينة تلمسان، فكان أمرهم في البداية لشيخهم جابر بن يوسف الذي عقد له الخليفة الموحدي المأمون إقليم تلمسان وما يليه سنة 627هـ/ 1229م، حيث أخذ جابر يدير شؤون الإقليم ويوسع رقعته ويوطد أركانه، فأطاعه بنو عبد الواد باستثناء أهل ندرومة[36]، الذين تخلفوا عن مبايعته؛ مما دفع بني عبد الواد لمحاصرتهم لكن زعيمهم جابر بن يوسف لقي حتفه سنة 629هـ/1231م[37]، ليتولى بعده ابنه الحسن بن جابر الذي تخلى عن الحكم بعد ستة أشهر لصالح عمه عثمان بن يوسف، لقد أساء هذا الأخير السيرة فعزل، وكان ذلك سنة 631هـ/1233م[38] ليخلفه ابن عمه عزة بن زيان بن ثابت، فالتفت حوله الأعراش والقبائل باستثناء "بني مطهر" الذين عارضوه رفقة حلفائهم من "بني راشد"[39]، فقام بمحاربتهم إلا أنه قتل أثناء هذه الحرب سنة 633هـ/1235م[40]، ليخلفه السلطان يغمراسن بن زيان[41]، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العبد الوادية (الزيانية).

لم تكن للدولة الزيانية حدود ثابتة ومستقرة بل كانت حدودها تتسع وتتقلص حسب قوتهم العسكرية والاقتصادية، وحسب وحدة سلاطينهم وانسجام قبائلهم[42]، فالناحية الغربية ظلت ثابتة منذ تأسيسها والتي يحدها حسب ما ورد عند الحسن الوزان" واد زا ونهر

[36] - **ندرومة**: مدينة بقرب من تلمسان، وهي من المدن الكبيرة العامرة الآهلة ولها مزارع عدة- الإدريسي-نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- اعتنى به- طلال سالم الحديثي –دار العراب ودار حوران للدراسات والنشر والترجمة-دمشق-ط 2016م-ص 324.

[37] - يحى بن خلدون- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات-عالم المعرفة-الجزائر- ط2011م- ج1 - 220.

[38] - ابن خلدون- مج2- ص 2111.

[39] - **بنو راشد**: ينتمون لقبيلة زناتة- مواطنهم بالصحراء ثم استوطنوا جبل بني راشد وهو يعرف حاليا (بجبال عمور)- ينظر ابن خلدون - مج2- ص 2103

[40] - ابن خلدون-المصدر نفسه- مج2-ص 2111.

[41] - **يغمراسن بن زيان**: أبو يحي، بويع سنة 633هـ/1235م بعد مقتل أخيه أبي عزة، كان شجاعا فاضلا، حكيما، متواضعا - يحي بن خلدون-نفسه-ج1-ص 225/ ينظر أيضا تعريف ابن خلدون- المصدر نفسه - مج2- ص2113.

[42] - عبد العزيز فيلالي-المرجع السابق-ج1- صص 43.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

ملوية"[43]،بينما حدودها الشرقية المتاخمة للدولة الحفصية ظلت مجالا للتوسع كلما أتيحت الفرصة لسلاطينها[44].

سلطة المغرب الأقصى: (بنو مرين): هم أحد بطون قبيلة زناتة الكبرى الأكثر عددا والأشد بأسا؛ يعتبرون قبائل رحل سكنت الصحاري والقفار في منطقة امتدت من جنوب القيروان إلى صحراء بلاد السودان[45]، لقد ذُكر أن بني مرين "كانوا يسكنون بلاد القبلة من زاب إفريقية، وينتقلون من مكان إلى مكان، وجل أموالهم الإبل والخيل، وطعامهم اللحوم والتمر"[46]، يؤكد صاحب الدخيرة السنية هذا النمط من العيش لهم فيقول: "لا يعمرون إلا القفار ولا يؤدون لسلطان بدرهم ولا دينار ،ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان، ولا يرضون بذل ولا هوان، لهم همم عالية، ونفوس إلى المعالي سامية، ولا يعرفون الحرث ولا التجارات ، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات، جل أموالهم الإبل والخيل، ودأبهم الحرب...وشيمهم إكرام الضيف، وضرب أعدائهم بالسيف"[47]، فهذه الوصف المصدري يدل على قوة عصبية زناتة ودورها في تأسيس دولتهم التي ستقام في المغرب الأقصى وتتخذ مدينة فاس عاصمة لها؛ وإن لاحظ عليها الباحث المغربي"محمد المنوني" كون هذه الدولة المرينية التي قامت سنة (668هـ/1269م) لم تتوفر على القوة والنظام اللذان كانا لدى الموحدين وهو من الأسباب التي جعلت قبيلة بني مرين لا تستطيع استعادة الملك الموحدي بشمال إفريقيا والأندلس[48]، ولذلك توزع هذا الملك الواسع واقتسم بين بني عبد الواد الذي سبق إيرادهم وبين الحفصيين الذين سنأتي على ذكرهم لاحقا.

من المعلوم أن "زناتة" هي من القبائل البربرية المعروفة في المنطقة الجنوبية للمتوسط منذ زمن قديم واستوطنت ما بين غدامس والمغرب الأقصى مرورا بجبال طرابلس وإفريقية فجبال الأوراس حتى المغرب الأقصى، واستقر أغلبهم في بلاد المغرب الأوسط الغربي، حتى إنه

---

[43] - الحسن الوزان-وصف إفريقيا-ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي و محمد الأخضر-دار الغرب الإسلامي-بيروت-ط2-1983-ج2-ص7.

[44] - عبد العزيز فيلالي-المرجع السابق- ص44.

[45] - معمر الهادي محمد القرطوطي- الحياة الاقتصادية في دولة بني مرين (668-869هـ/1269-1465م)، جامعة الزاوية – ليبيا- ط1- 2013-ص39.

[46] - المرجع نفسه- ص 39.

[47] - ابن أبي زرع الفاسي- الدخيرة السنية- ص25.

[48] - محمد المنوني- ورقات عن حضارة المرنيين- مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء- ط3-2000م-ص 14.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

اشتهر بـ"موطن زنانة"[49] كما كان من بينهم بطون زناتية امتدت مواطنها من"فيكيك إلى سجلماسة إلى ملوية وربما يخطون في ظعنهم إلى بلاد الزاب"[50].

لقد أحس بنو مرين بتصدع كيان الدولة الموحدية، وأن بإمكانهم الاستقرار في أراض أصلح من أراضيهم لتحسين أوضاعهم ببلاد المغرب، فشنوا الغارات على بلاده فسالموا من أطاعهم وحاربوا من قاتلهم في المغرب الأقصى الذي شهد سنة 616هـ/1219م تردي الأوضاع التي وصفها ابن أبي زرع الفاسي وصفا لغويا بديعا ينم عن خطورة بالغه قائلا: " كثرت الفتن بين قبائل المغرب، واشتد الخوف في الطرقات، ونبذ أكثر القبائل الطاعة وفارقوا الجماعة، وقالوا: لا سمع ولا طاعة ...فاقطع الحرث واشتد الغلاء في البلاد بسبب الإهمال والفساد"[51]، وانحصرت إثرها سلطة الموحدين في المدن وفقدوا السيطرة على القبائل.

لا يتجسد الملك السياسي فيكون له اعتبار على أرض الواقع -كما ذكرنا- إلا: بعصبية قبلية قوية أو دينية أو بحد السيف وإرادة القوة؛ لم يتخذ المرينيون عامل الدين أساسا لدعوتهم، كما فعلت الدول التي سبقتها كالمرابطين والموحدين وإنما ظل مذهبهم يرتكز أساساً على العصبية القبيلة ودعوتهم بحد السيف وإرادة القوة إذ من خلالهما سعوا لتكوين دولة وإصلاح الفساد الذي حل بالمغرب، وإن كان شعارهم يقتضي بإلغاء عقيدة المهدي بن تومرت والعودة إلى نقاء مذهب المالكي وسننه وطرقه، وهي فرصة سانحة استفاد منها أتباع مذهب "مالك بن أنس" واستغلوها أحسن استغلال من أجل العودة إلى ممارسة مذهب "أهل السنة" والتعبد به، مادام أتباعه عدوا بمثابة الأغلبية ببلاد المغارب يومها وإن حرمتهم دولة الموحدين منه هذه المدة من الزمن بحد السيف والقوة[52].

[49] - أبو العباس أحمد الناصري- السلاوي كشف العرين عن بيوت بني مرين- مخطوط ورقة 61. نقلا عن معمر الهادي محمد القرقوطي.-المرجع السابق-ص 43.

[50] - ابن خلدون- السابق- مج2- ص 2176.

[51] - ابن أبي زرع الفاسي- الدخيرة السنية –ص 36.

[52] - معمر الهادي محمد القرقوطي- المرجع السابق- ص49.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

سلطة المغرب الأدنى (بنو حفص): ينسب بنو حفص إلى الشيخ "عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتي"[53]؛ من قبيلة هنتاتة أعظم قبائل المصامدة عهدها[54]، في سنة 603هـ/1206م، تم تعيين عبد الواحد بن أبي حفص واليا على إفريقية، فمثل هذا مرحلة تمهيد للانفصال عن الملك الموحدي، وإن كان الانفصال يعود أساسا إلى الضعف الذي أصاب ملك الموحدين بسبب الفتن والاضطرابات الداخلية والثورات[55]، ولقد وصف لنا عبد الرحمان ابن خلدون تلك الأسباب التي اتخذها وجعلها المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية أبي زكريا الحفصي حجة لانفصاله عن الخلافة الموحدية فقال: "لما اتصل به ما آتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصا من هنتاتة وتينملل، وكان منهم أخواه أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم...وأنه غير رسوم الدعوة، وبدل أصول الدولة، وأسقط اسم الإمامة من الخطبة والسكة... أعلن بخلعه سنة ست وعشرين وستمائة"[56].

أي أنَّ تدابير الخليفة إدريس المأمون[57]، التي حاول من خلالها إعادة الأمور لنصابها بالاقتصاص العلني من خصومه بعد إدانتهم هذا الاقتصاص الذي تعلق الأمر كما ورد في نص ابن خلدون بالأشياخ الذين اعتبرت غالبيتهم من قبيلة هنتاتة، فكان أن عجل المأمون بمحاكمتهم، لذا جاءه الرد سريعا، بإعلان أبي زكريا الحفصي الانفصال والعمل على الاستجابة لمطامحه في بناء دولة مستقلة تمثل الكيان الموحدي، بحكم كونه من سلالة المهدي بن تومرت[58] وأول عمل باشره هو استرجاع حدود إفريقية إلى ما كانت عليه خلال عصر الدولة

[53] - ابن عذاري- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-قسم الموحدين-تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون-دار الغرب الإسلامي- بيروت-ط1-1985-ص290.

[54] - القلقشندي- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان-حققه إبراهيم الأبياري-دار الكتاب المصري- القاهرة-دار الكتاب اللبناني-بيروت –ط2-1982-ص169.

[55] - محمد العروسي المطوي- السلطنة الحفصية "تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي- دار الغرب الإسلامي- بيروت لبنان- ط-1986-صص 92-93.

[56] - ابن خلدون- المصدر السابق- مج2- 1947./ينظر أيضا: عبد الله العروي-المرجع السابق-ص338.

[57] - لقد حاول إدريس المأمون بهذه التدابير إضعاف جهاز الأشياخ والثاني إقدامه على تحطيم الإطار الإيديولوجي لقوتهم بتصريحه حول أن المهدوية "بدعة "ينظر أحمد عزاوي- مقالات تاريخية عن الغرب الإسلامي" وثائق وعلاقات" منشورات الرباط نت-ط1-2015-ص 64.

[58] - محمد القبلي- المجتمع والحكم والدين- ص 37.

ردمد ISSN 0000-0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 -0000

الصنهاجية الموحدة، حيث توجه لقسنطينة وبجاية لضمهما[59]، إذ يكون بهذا قد استولى على أكبر نصيب من التركة الموحدية؛ فيقول عنهم ابن الأحمر[أي الحفصيين] أنهم "بسطوا سلطانهم على شرقي المغرب الأوسط، واحتلوا بجاية وإقليم الزاب، ووصلوا بحدودهم إلى المجرى الأعلى لنهر شلف"[60]محافظين شكليا على المهدية إثباتا لشرعية وراثتهم[61] ؛ ستدشن بلاد المغارب مرحلة جديدة من الصراعات العسكرية والسياسية بين تلك السلطات الثلاث الناشئة وما سوف ينجر عنه من تحالفات قبلية لمساندة تلك السلطة أو تلك.

خاتمة: لقد كان للتدابير والإصلاحات التي أعلن عنها الخليفة الموحدي إدريس المؤمون أثر كبير في تغير الخريطة الجيوسياسية على بلاد المغارب ليتحول هذا المجال من مجال جغرافي موحد إلى مجال متفرق. حيث لم تعرف بعدها المنطقة المغاربية وحدة سياسية بعد زوال الملك الموحدي الذي دام أزين من قرن وعشرين سنة من الزمن رغم الروابط المشتركة التي جمعت دول بلاد المغرب دينيا وثقافيا واقتصاديا .

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن خلدون-العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر-اعتنى به وراجعه- درويش الجويدي- المكتبة العصرية- صيدا- بيروت- ط2013-مج2-ص1899/القلقشندي-نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب- تحقيق إبراهيم الأبياري- دار الكتاب االلبناني- بيروت- ط2-1980م-

2- البيدق- أخبار المهدي بن تومرت- تحقيق وتعليق-عبد الحميد حاجيات- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر-ط2-1986-

3 -ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق- مأمون بن محي الدين الجنان- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ط1- 1996-

4- ابن قطان- نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان- درسه وقدم له وحققه: محمد علي مكي- دار الغرب الإسلامي- تونس- ط1-1990م

5 -عبد المجيد النجار- المهدي بن تومرت "حياته وآراؤه وثورته الفكرية والاجتماعية وأثره بالمغرب- دار الغرب الإسلامي-بيروت-ط1-1983

[59] - محمد العروسي المطوي- المرجع السابق- ص129- 132.

[60] - ابن الأحمر-تاريخ الدولة الزيانية- ص 9.

[61] - أحمد عزاوي- المرجع نفسه- ص 65.

ردمد ISSN 0000–0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 –0000

6- الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق- سعيد زعلول عبد الحميد -دار الشؤون الثقافية العامة- بغداد-د.ت-

7- عبد الله عنان- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس -مكتبة الخانجي- القاهرة- ط2-1990-ج3

8- روجر لي تورنو- حركة الموحدين في المغرب في القرنيين الثاني عشر والثالث عشر- تعريب: أمين الطيبي- ط-ح 1998- الدار البيضاء-

9- ابن سماك العاملي- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية-تحقيق: عبد القادر-دار الكتب العلمية-بيروت- ط1-2010م

10- حسين مؤنس-الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس"عصر المرابطين والموحدين"-مكتبة الخانجي-القاهرة-ط1-1980م-

11- منير شواكري-أسس قيام الدولة في المغرب الإسلامي وفق نظرية ابن خلدون-الدولة الموحدية- نموذجا(510-558هـ/1116-1163م) رسالة ماجستار-جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان-2013-2014

12- عبد اللطيف كنوش-السلطة والمؤسسات السياسية في مغرب الأمس واليوم-مكتبة بروفانس- الدار البيضاء-ط1988م- ص59.

13- صالح عبد الحليم الإيلاني-مفاخر البربر- تحقيق عبد القادر بوباية- مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث-طبعة خاصة- 2013م-

14- محمد عابد الجابري- فكر ابن خلدون- " **العصبية والدولة** "معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي- مركز الدراسات الوحدة العربية- ط1-بيروت-

15- ابن الأحمر- تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان- تحقيق هاني سلامة- مكتبة الثقافة الدينية- ط-1- 2001م-

16-جورج مارسيه- بلاد المغرب وعلاقاته بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى- ترجمة محمود عبد الصمد هيكل- مراجعة مصطفى أبو ضيف- منشأة المعارف- الإسكندرية- دط- دت-

17- الإدريسي-نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- اعتنى به- طلال سالم الحديثي –دار العراب ودار حوران للدراسات والنشر والترجمة-دمشق-ط 2016م

18- يحى بن خلدون- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد- تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات-عالم المعرفة-الجزائر- ط2011م- ج1

19- الحسن الوزان-وصف إفريقيا-ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر-دار الغرب الإسلامي-بيروت-ط2-1983-ج2

ردمد ISSN 0000–0000 الإيداع القانوني: Depot Légal 0000 –0000

20- معمر الهادي محمد القرطوطي- الحياة الاقتصادية في دولة بني مرين (668-869هـ/1269-1465م)، جامعة الزاوية – ليبيا- ط1- 2013.

21- محمد المنوني- ورقات عن حضارة المرنيين- مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء- ط3- 2000م-

22- ابن عذاري- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب-قسم الموحدين-تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون-دار الغرب الإسلامي- بيروت-ط1-1985-

23- القلقشندي- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان-حققه إبراهيم الأبياري-دار الكتاب المصري-القاهرة-دار الكتاب اللبناني-بيروت –ط2-1982-

24- محمد العروسي المطوي- السلطنة الحفصية "تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي- دار الغرب الإسلامي- بيروت لبنان- ط-1986-

25- أحمد عزاوي- مقالات تاريخية عن الغرب الإسلامي" وثائق وعلاقات" منشورات الرباط نت-ط1-2015-